فصل من «ما بعد الحياة»

أصوات في الرأس

بقلم كولن ولسن

ترجمة محمد جلال عباس

دكتور آدم كرابتري Adam Crabtree طبيب نفساني يقيم ويعمل في تورنتو بكندا، بدأ يمارس عمله عام ١٩٦٦؛ ومثله مثل غالبية الأطباء النفسيين سرعان ما عرضت عليه حالات مرضى يسمعون أصواتاً في رؤوسهم.

تبين أخيراً أن مثل هذه الحالات ليست بالقليلة، وأصبح من المؤكد أن سماع الصوت لا يعتبر الآن نوعاً من أنواع الجنون. وبدأ الدكتور جوليان جاينز Julian Jaynes دراسة الهلوسة السمعية بعد أن خبرها بنفسه حينما كان مستقلياً على مضجعه فسمع من الهواء الذي فوق رأسه صوتاً يخاطبه. كان طبيعياً أن يقلق على حالته الصحية، ولكنه سرعان ما استراح حينما اكتشف أن نحو ١٠٪ من الناس مصابون بنوع من أنواع الهلوسة، وأن ثلث تلك الهلوسة تقريباً تتخذ شكل أطياف صوتية، فقد أخبرته ربة بيت شابة حالتها عادية بأنها تدخل في محاورة طويلة مع جدتها الراحلة كل يوم وهي تقوم بترتيب الأسرّة.

بالطبع كان رأي جاينز أن تلك الحالات هي من قبيل الهلوسات، وظل آدم كرابتري يشاركه هذا الرأي زمناً إلى أن قابلته حالة أثارت فيه شكوكاً أساسية، هي حالة سيدة تسمى سارة ورثنجتون كانت تحت العلاج عند زميلة له تسمى جيني: وبعد علاج أولي ناجح أصيبت سارة ورثنجتون بحالة اكتئاب دفعتها إلى محاولة الانتحار.

والتقى ثلاثتهم في مكتب كرابتري الذي بدأ يستطلع مشاكلها، فكان من بين ما طرحه من أسئلة سؤال عما إذا كانت تسمع في رأسها أصواتاً، فاعترفت بذلك. وطلب منها كاربتري أن تستلقي وتسترخي وتحاول قدر استطاعتها أن تتذكّر ما بداخليتها من أحاديث، وسرعان ما بدأ جسدها يرتعد، وصاحت قائلة: «آه.. حرارة شديدة... أشعر بسخونة». وبينما هي تتحدّث لاحظ الطبيب النفساني وزميلته تغيّراً في صوتها. كانت سارة فاقدة الثقة في نفسها، ولكن شخصيتها الجديدة كانت تنطق بصوت ينمّ عن اعتياد ممارسة السلطة، وحينما سألوها عمّا تريد أن تفعله، أجابت من فورها: «أريد أن أساعد سارة»، فكان ذلك دليلاً واضحاً على أنها لم تكن آنذاك سارة ذاتها التي تتكلم، وسألوها عن اسمها فأجابت: «اسمي سارة جاكسون» معتبرة نفسها بذلك الجدة سارة. وشرح كاربتري أنه هو وزميلته جيني يحاولان مساعدة سارة، ثم أخذ يسأل من خلالها الجدة سارة إذا كانت مستعدة للمساعدة من جانبها، فأجابت نعم. وانتهت بذلك الجلسة الأولى.

أُحضرت الجدة بسرعة في الجلسة التالية واستمرّت في حديثها عن حريق، ثم وصلت أثناء حديثها إلى مرحلة تحوّل مفاجىء وسألت: «أين جاسون؟» وارتشح منها أن جاسون هذا هو ابنها؛ وأن النار التي تشير إليها هي حريق حدث سنة ١٩١٠، وأن الجدة سارة جاكسون أسرعت إلى المنزل بمجرد علمها بالحريق الذي شب في شارعها، وكانت قد تركت ابنها جاسون البالغ من العمر سبع سنوات وحده بالمنزل. وجدت الحي كله مشتعلاً. صحيح أن الجيران قد أخرجوا جاسون ولكنها لم تكتشف ذلك إلا بعد ساعة أخرى كانت خلالها تجري في الطرقات

كالمجنونة، وحرارة الحريق تكاد تخنقها. فانطبعت هذه الحادثة في أعماق مشاعرها.

وبناء على ما ذكرته الجدة استحوذت على الحفيدة سارة ورثنجتون لترعاها حين كانت تعزف على البيانو فكلتاهما تحبّان الموسيقى. وسرعان ما تبين، رغم رغبتها في رعاية الحفيدة، أن سارة جاكسون نفسها كانت بحاجة إلى مساعدة، فقد امتلأت نفسها بشعور الأسى بسبب خطايا حياتها خاصة فيما يتعلق بسوء معاملتها لابنتها أليزابيت والدة سارة. فقد حولت اليزابيت إلى فتاة عصابية غير سعيدة فأساءت بدورها معاملة ابنتها سارة، وأصبحت علاقة سارة بوالدتها صورة غريبة من علاقة أليزابيت بأمها سارة (الجدة)، فكان كل منهما يفضّل الابن على الابنة وكل منهما يرى أن الذكور هم كل شيء وأن الإناث لا قيمة لهن. أدركت الجدة ذلك إدراكاً تاماً حينما ماتت، وذلك هو السبب الذي جعلها تشعر بأن من واجبها مساعدة حفيدتها. وبدلاً من أن تقدم يد العون تسبّبت في سوء حالتها حيث أصيبت سارة بالرعب والاضطراب من الأصوات التي تسمعها في داخلها، وأصبح اليأس يغمرها.

أما الآن، وقد انتقلت الجدة جاكسون إلى العالم المفتوح، فقد أصبحت الأمور أيسر، وأمكنها أن تقدم للطبيب النفساني معلومات قيمة للغاية عن خلفيّتها العائلية. ورغم أن سارة دهشت في أول الأمر حينما علمت بأن جدتها هي التي تتحدث من خلالها (أثناء الجلسات) إلا أنها أخذت تدرك تدريجياً كيف تتقبل ذلك، وبدأت تتعمق أكثر في تأمل مشكلاتها، وبذلك شفيت تماماً بعد انتهاء شهرين من العلاج. ولئن ظلت الجدة متواجدة باستحواذها فإن سارة أصبحت تتفهم سبب ذلك، ولم تعد تخشى شيئاً، بل إن شعورها بتواجد جدتها، ولو بصورة غائمة، في خلفية حياتها، أدّى في الحقيقة إلى إحساسها بالسكينة.

ربما يتفق معي القارىء في الانطباع الذي تعكسه هذه القصة، فحينما قرأت مخطوطة الكتاب الذي ألفه آدم كرابتري بعنوان «الرجل المتعدّد»، رأيت حتمية وجود تفسير سيكولوجي خالص. عرفت سارة جدتها في طفولتها، وربما سمعت حكاية الحريق منها مباشرة، وربما أدركت مدى التشابه بين مشاكلها ومشاكل أمها، وأصبح عقلها الباطني يعيد حكايتها كمحاولة لتقبّل تلك المشاكل الشخصية قبولاً عقلانياً.

ومع استمراري في قراءة كتاب كرابتري (الذي أرسله لي الناشر لأكتب مقدمته) فقد زاد إدراكي بأن الكثير من تلك التفسيرات غير مقبول. إذ أنه يواصل فيه تقديم ثماني حالات أخرى تولّى علاجها. كل حالة منها تمثل نوعاً من أنواع الاستحواذ. وبعد أن قرأت الحالة الثالثة والرابعة، أخذ التفسير عن طريق العقل الباطن يبدو أمامي تفسيراً واهياً. وهناك حالة اخصائية اجتماعية تدعى سوزان، كانت تعاني من العجز عن ممارسة أي علاقة عادية مع أي رجل، وأدركت أن ذلك يرجع إلى شعور داخلي بالامتعاض والازدراء لأبيها. كان ذلك إدراكاً صحيحاً، واستطاع كرابتري أن يخاطب أباها ـ الذي مات في حادثة سيارة من خلالها ـ كما تحدّث مع الجدّة سارة. فعلم منه أنه كانت لديه رغبة جنسية عارمة في ابنته، فلما بلغت السادسة عشرة من عمرها حدث أن دخل إلى حجرتها خلسة بعد أن نامت، وأخذ يتحسس مواضع من جسمها فأدركت من اللاوعي ما يحدث، وعرفت رغبته الجنسية فيها، فعاملته بازدراء شديد، وتصرفت بتبجّح رغم أنها كانت تستمتع بذلك الجديد من الإحساسات التي اكتشفتها من طاقتها الجنسية، وأدى ذلك إلى شعورها بالخجل، وامتدَّ الازدراء إلى علاقاتها مع أصدقائها الشبان حينما كانت تضاجعهم، مما كان يسبب إثارة المشاكل معهم. وحينما مات أبوها في حادثة السيارة اتخذ من لاوعي ابنته ملجأ. فكانت تتألم بشدة من اقتحامه لها وتدخّله في كل ممارساتها الجنسية. وتواجد الأب في داخلها ذات مرة غائماً في نعاسها، ولم تكن تتبينّ شخصيته أو وضعه الحالي، وحاول كرابتري بإصرار شديد أن يشرح لسوزان أن أباها ميت بالفعل. وفي يوم من الأيام لم يظهر أبوها في الجلسة العلاجية، فغمر سوزان شعور بالارتياح والتحرّر.

وتحدث عن حالة أخرى مدهشة ولكنها خداعة، هي حالة أستاذ جامعي يدعى آرن، كان قد فشل في زواجه الأول. وكان على وشك عقد زواجه الثاني، وأحس آنذاك بشعور عميق بالزهد في هذا الزواج. وارتبط ذلك الشعور بعواطف قوية منبثقة من داخليته وتخرج عليه بأصوات تعيب عليه وتنتقده هو والكثيرون ممن يعرفهم من الناس. وأدرك بصورة غائمة أن ذلك الصوت يشبه صوت أمه التي كانت تعيش في دترويت، وتوصّل بنفسه إلى تفسير معقول لذلك، وهو أن الصوت يمثل الجانب السلبي من ذاته، وأنه يحتوي في داخليته الكثير من أمه التي كانت شديدة الاستحواذ عليه.

اتبع كرابتري إجراءاته المعتادة، فوضع الأستاذ آرت موضوع الاسترخاء العميق وبدأ من خلاله حواراً مع أمه التي كانت تسمى فيرونيكا. كانت فيرونيكا مستعدة للتحدّث بكل التفاصيل عن علاقتها بابنها وعن الأسباب التي تجعلها لا تحبّذ علاقاته الكثيرة مع الأصدقاء. ظهرت فيرونيكا على حقيقتها بلا مواربة بسذاجتها كشخصية أنانية . . . وأوضحت أنها كانت ببساطة تعلّم ابنها أن الكثير ممن يثق فيهم، بمن في

ذلك زوجته المقبلة، أغبياء وانتهازيون وغير جديرين بالاحترام.

وسألها كرابتري عما إذا كانت تعتقد في أن هذا التدخل لمصلحتها أو حتى لمصلحة ابنها، فاعترفت أخيراً وكانت إجابتها بالنفي. كانت حياة فيرونيكا في مدينة ديترويت مضطربة منحلّة. فأشار كاربتري عليها بأن توجّه لشؤونها الخاصة المزيد من الاهتمام، وأن تقلل من اهتمامها بشؤون ابنها، لأن ذلك قد يساعد على تحسين أحوالها.

اكتشفت والدة آرت أثناء إحدى الجلسات أنها مصابة بورم سرطاني، وأنها تحتاج إلى عملية جراحية، ووافقت وهي تتحدث على لسان والدها آرت، على أن ذلك ربما يرجع إلى أنها تسلب من نفسها الحيوية باستحواذها على ابنها. عند هذه النقطة بدأ صوت آرت الداخلي يخبو تدريجياً حتى اختفى تماماً من مسمعه، ولكن حدث آنذاك تغير واضح في أمه المتواجدة في ديترويت، فبعد أن كانت تمرّ بمرحلة انهيار بطيء وابتعاد وجداني عن الحياة بدأت الحيوية تدبّ فيها من جديد، وبدأت تخرج لتكوين أصدقاء، ويبدو أنها اكتسبت الحكمة التي تقول باغتنام فرص جديدة في الحياة.

ويصرّ كرابتري على أن نظرته إلى هذه الحالات ليست نظرة من يعتقد في ما هو خارق للعادة، بل إنه مجرد مراقب يسجّل الملاحظات عن كل حالة من الحالات التي تعرض عليه على أنها حالة استحواذ. ومن الواضح أن ليس هناك ما ينقض الفكرة التي تقول بأن كلاً من سوزان وسارة وآرت كانوا يصطنعون تلك الأصوات بأنفسهم، فالعقل الباطن قادر على ما يتجاوز ذلك العمل بكثير، ولكن تبقى حقيقة هامة هي أن معظم القراء سوف يشعرون بأن تلك الحالات، لو أخذت جملة فسوف ينشأ عنها انطباع غامر عن وجود شيء أكثر من الخداع اللاشعوري للنفس.

رجعت إلى دكتور جوليان جاينز لأتعرف عما يقوله بشأن تلك الأصوات الخفيّة، فوجدت أنه يلخص نظريته في كتاب له بعنوان «أصل الوعي في حالة انهيار العقل الإزدواجي (Bicameral mind) الذي نشر عام ١٩٧٦، والعقل الازدواجي هو ببساطة انقسام العقل إلى شطرين. ويقدم جاينز في هذا الكتاب نظرية غير عادية تقول بأن أسلافنا القدماء كانوا يسمعون الأصوات بصفة مستمرة، والسبب في ذلك ـ حسب رأي جاينز ـ هو أن الإنسان الأول كان يفتقر إلى معرفة ذاته بالمعنى الحديث لهذه المعرفة. ويعتقد جاينز أن إنسان الكهوف من أسلافنا لم تكن لديه القدرة على تأمّل نفسه من داخلها. فهو لا يحدث نفسه قائلاً: «فلأفكر في كذا أو كذا. . .» ولأن أسلافنا كانوا يفتقدون الأنا الداخلية كانت أعينهم أشبه ما تكون بمصابيح السيارة تتجه إلى الخارج مباشرة في اتجاه واحد دائم، فإذا ما صدر الأمر لأحدهم بأن يذهب ليبني سدّاً على النهر فسيصعب عليه أن يتذكر لماذا هو سائر ذهاباً وجيئة على شط النهر هكذا. . وإنما يتأتى شعوره بالغرض حينما يسمع صوت الزعيم وكأنه هابط على رأسه من الهواء، وقد يكرر الصوت التعليمات نفسها.

فمن أين إذن يأتي ذلك الصوت؟ يذكر جاينز أنه يأتي من الجانب الأيمن من الدماغ، لأن نظرية جاينز تعتمد لدرجة كبيرة على البحوث التي تمت في علم انقسام الدماغ، التي أحرزت تقدماً كبيراً خلال الخمسينات.

ولسبب ما لا يفهمه أحد حتى الآن ينقسم الدماغ فعلاً إلى شطرين متماثلين، كما لو كانت هناك مرآة تفصل بينهما (بل إن هناك رأياً يقول بأن أحد هذين الشطرين هو بمثابة قطعة غيار للآخر). أما الجزء العلوي من الدماغ والذي يقع تحت عظمة الجمجمة مباشرة، فإنه الجزء الذي يميز الإنسان، وذلك هو الذي يسمى المخ (Cerebrum) أو نصف الكرة المخية (Cerebral Hemisphere). وقد مرّ هذا الجزء بتطورات ملحوظة خلال النصف المليون سنة الأخير (والتي هي بمثابة طرفة عين في مجرى الزمان). وإذا أمكن كشف الجزء الأعلى من الجمجمة فإن شطري الدماغ سوف يبدوان كفصّين في الجوزة، ويتكون الجسر الموصل بينهما من شبكة من الأعصاب تسمى المجموع التقني (Corpus Callosum).

ولقد شاع منذ أكثر من قرن أن الجزء الأيسر من نصف الكرة المخيّة هو القسم الخاص باللغة والتفكير المنطقي، بينما يختص الجزء الأيمن بأنماط الصور والحدس. فالشطر الأيمن مثلاً هو الذي يساعدنا على ترتيب الأرقام. أما الشطر الأيسر فيساعدنا في التعرف على وجه شخص معين. ويمكن القول بصفة عامة إن الشطر الأيسر علمي والشطر الأيمن فنّي. فالإنسان الذي يصاب الشطر الأيسر من دماغه بالعطل ربما يجد صعوبة في الكلام ولكنه يستطيع أن يرسم صورة أو يدندن بنغم. أما إذا تعطل الشطر الأيمن فسيظل منطق الإنسان متكاملاً ومترابطاً ولكنه ربما لا يستطيع أن يرسم ولو شكل رجل في خطوط مبسطة.

والشيء الغريب هو أن الجسر الذي يوصل بين الشطرين، وهو المجموع التقني إذا ما أصابه التمزّق (كما يحدث في بعض الأحيان لمنع الصرع)، فإن المريض يصبح من الناحية النظرية شخصيتين. حتى أن مريضاً بانفصال الدماغ قد يفكّ فتحة سرواله بإحدى يديه ويغلقها باليد الأخرى. وهناك من يحاول، في لعبة تركيب الأجزاء، أن تتولى إحدى يديه التركيب وتتدخل الأخرى لفكها، فيضطر أن يضع يده الأخرى تحته ويجلس عليها. (وجدير بنا أن

نضيف هنا أن الشطر الأيمن من الدماغ هو الـذي يتحكم في الجانب الأيسر من الجسم والعكس صحيح، وبـذلك نكـون أمام ظاهرة أخرى ما زال سببها غامضاً حتى الآن).

بيـد أن أكثر الاكتشـافـات أهميـة هـو أن الشخص الـذي تسمّيـه (أنت) يعيش في الشطر الأيسر من الدماغ. أما الذي يعيش في الشطر الأيسر فهو آخر غريب. ولقـد عرضت ذات مرة صورة عـارية عـلى فتاة مـريضة بـالانقسام الـذهني لتنظر إليها عن طريق الشطر الأيمن من الدماغ (أي بعينها اليسرى) فـاحمرّت خجـلاً. ولما سئلت عن سبب شعـورهـا بـالخجـل قالت: «لا أعلم».

ويعتقد جاينز أن تلك الأصوات الخفية (غير المحيّرة) تأتي من ذلـك الشخص الآخر الـذي يتواجـد في الشـطر الأيمن. والـذي يحدث هـو أن الصـوت يتـردّد في الشـطر الأيسر من الدماغ وهو ذاتك أنت ـ كما لو كان آتياً من مكبّر الصوت.

وهناك اعتراض واضح على هذه النظرية، فإن جاينز نفسه ليس من المصـابين بـالانفصام الـذهني، ومع ذلـك فإنـه يمـر بهلوسة سمعيّة. وينطبق هذا أيضـاً على مـرضى الدكتـور آدم كـرابتري. والإجـابة المذهلة على ذلـك هي أن كل فـرد منا مصاب بدرجـة من درجات الانفصـام الذهني، وليس لكـل فرد اتصال من قريب أو بعيد بـأعماق تلك النفس الحـدسيّة. وحول ذلك ذكر موزارت يـوماً أنـه لاحظ النغمات تـدخل في رأسه بكامل هيئتها. وواضـح أنه يقصـد بذلـك أن النغمات تـأتي من الجـانب الأيسر للـدمـاغ، وهـو الأنـا، منتقلة من النصف الثـاني الـذي يخلق النغـمات والصـور. وإذا كـان مـوزارت هكذا مصـاباً بالانفصـام الـذهني فلا بـد أن بقيـة الناس مصابون به بالتأكيد.

وطبقاً لما ذكره جاينز، كانت الأصوات تسير بكامل هيئتها إلى الشطر الأيسر من أدمغة أسلافنا. ولقـد زعموا، دون أن ينبني الـزعم عـلى فهم واضـح، أنها الأصـوات الإلهيــة، أو صـوت الإله، ولـذا جـاء في العهـد القـديم وفي الإليـاذة أن الناس كانوا دائماً يتلقّون خبراً مـا ليفعلوه بواسـطة أصوات مقدسة.

ولا يتصل هذا العنصر من نظرية جـاينز بـدراستنا هـذه، ولكن كـل ما يهمنـا منه هنـا هو اعتقـاده بأن الأصـوات تأتي أصلاً إلى الجانب الأيمن من الدماغ، وأن الإنسان يسمع مثل تلك الأصوات منذ بـداية البشريـة. ولو كـان ذلك حقـاً فلا شـك في أنه يفسر لنـا بوضـوح صوت جـدّة سارة، وصـوت والد سوزان، وصوت والد آرت. وتبدو هذه الحـالة الأخـيرة في حقيقتها أكثر إقنـاعاً وقبـولاً من الحالات الأخرى، وذلك لأن هناك امرأة حية تعيش في دترويت، وتستطيع بـطريقة أو بأخرى أن تتسلل إلى أعماق رأس ولدهـا الذي يعيش بعيـداً عنها في تورنتو.

اتّجه جاينز إلى مناقشـة الأصوات التي يسمعهـا المصابـون بأمراض عقلية، فلاحت أمامه بعض شكوك، فأشـار إلى أن معـظم الحالات التي تنـاولها بـالـدراسـة تتضمن نـوعـاً من الشيـزوفرانيـا أي الفصـام. ويقـول في ذلـك: «إن المخـاطبـة والتهـديد واللعنـات والنقد والمشـورة، غـالبـاً مـا تـأتي في شكـل جُمـل قصيرة، وقـد تكـون استحثـاثـاً أو تعـزيـة أو نحيبـاً أو نخيراً، وقد تـتراوح بين الهمس البسيط والصيـاح العاصف. وغالباً ما تتخذ تلك الأصوات شكلاً معيناً يتكرّر، كالحديث البطيء أو الحديث بالمقاطع أو قد يـأخذ شكـل نغم أو إيقاعـات، وأحيـاناً يكـون الحـديث بلغـة أجنبيـة. وقـد لا يكـون الصـوت واحداً، كل مرة، وفي هذه الحالة غالباً ما تكون قليلة في تنوعاتها، ولكن قد تكون كثيرة التعدّد في حالات قليلة للغاية. . . ».

أما عن الأصوات كما وصفها كاربتري، فإنها ليست جميعاً من قبيل الثرثرة غير المفهومة، بل إنها مخاطبات واضحة مثـل كلام أي شخص عاديّ. وينـطبق ذلك عـلى ربة البيت التي طالما كانت تتحدث مع جدتها وهي ترتب الأسرَّة. ولا يوجد سبب يدعو إلى القول بأن الأصـوات الطيفيَّة ليست كصوت الشخص العادي. ولكن يبدو حقاً أن أغلبها ليس كذلك.

يتأكد هذا في الدراسة التي قام بهـا عالم نفسـاني آخر هـو دكتـور ويلسون فـان ديوسـين Willson Van Dusen الذي كان يعمل في مستشفى الولاية بمدينة مندوسينو بكاليفورنيـا. قضى فان ديوسين ستة عشر عاماً يسجّل ملاحـظات عن آثار الهلوسـة، وجمع نتـائج تلك المـلاحـظات في فصـل عنـوانـه «تواجد الأرواح في حالات الجنون» وذلك في كتابه الذي نشر بعنوان «تواجد العوالم الأخرى». وتعتبر النتـائج التي تـوصل إليها أكثر إدهاشاً من تلك التي توصل إليها جوليان جاينز.

يوضح لنا فان ديوسين أن معـظم المرضى الـذين يهلوسون يفضلون أن يحتفظوا بخبراتهم لأنفسهم لأنهم يعلمـون تمـام العلم أنها قد تؤخذ كـدليل عـلى إصابتهم بـالجنون. بيـد أن إحـدى المريضـات كانت متعـاونة فـطلبت إلى الدكتـور فـان ديوسين أن يتخاطب مع هلوستها، ففعل ذلـك. وبالـطبع لم يحصل على إجابات مباشرة على أسئلته، وكان عليه أن يطلب من المريضة أن تصف له بالتفصيل ما تسمعه وما تـراه، ومع ذلك لم يكن هناك ما يمنع أو يوقف فان ديـوسين عن مخاطبة الهلوسة مباشرة، وعلى حد قوله: «استطعت بهذه الطريقة أن أجـري حواراً طـويلاً مـع هلوسات المـرضى، وسجلت كـل اسئلتي مـع إجـابـاتهـا. ويتمسـك فـان ديوسـين مثـل آدم كاربتري بالقول: «إن منهجي هو تسجيل الظواهر، وغـرضي الأوحد هو تـوصيف خبرات المـريض بأعـلى قدر من الـدقة، وقـد يلاحظ القـارىء أنني أتعامـل مـع الهلوسـات عـلى أنها

حقائق واقعة. كما هي في الواقع بالنسبة للمريض».

ومن النتائج الثابتة كما يذكر ڤان ديوسين، أن المرضى يشعرون كما لو أنهم على اتصال بعالم آخر أو طبقة أخرى من الكائنات. وأغلبهم كان يعتقد أن الأشخاص الغرباء أحياء، وأن جميع المرضى كانوا يعارضون تسمية ذلك هلوسة...

... تأتي الهلوسة بالنسبة لمعظم الأفراد بصورة مفاجئة، فهناك امرأة كانت تعمل في الحديقة، فسمعت صوت رجل خفيّ يخاطبها، ووصف رجل آخر أصواتاً عالية تفاجئه ويسمعها أثناء ركوبه الحافلة. كان أغلب المرضى يفزعون من الأصوات في أول الأمر. ثم يعتادون على تلك الخبرة الجديدة الصعبة. ويصف كل المرضى الأصوات بأنها لا تخرج عن كونها أصواتاً عادية. وكان كل ما يصفونه عما يحدث لهم لا يشبه بحال من الأحوال الظنون أو الخيالات، فإن ما يرونه يبدو لهم حقيقة واقعة. مثال ذلك وصف أحد المرضى حالته بأن ضباط القوات الجوية أيقظوه في إحدى الليالي لاستدعائه للخدمة الوطنية، فصحا، وبينما هو يلبس ثيابه لاحظ أن الشارات التي يحملونها لم تكن حقيقة، فأدرك أنهم من عالم الكائنات الأخرى، واستجمع قبضته ليضرب أحدهم على وجهه، فإذا يده تصدم الحائط وتجرح. وذلك يدل على أنه لم يميزهم عن الأشخاص الحقيقيين إلا حينما رأى الإشارة....».

ويدرك معظم المرضى بسرعة أن ما يحدث لهم لا يشاركهم فيه غيرهم، ولهذا السبب فإنهم يحرصون على الصمت وكثير منهم يعانون من السباب والتهديدات والاعتداءات التي تستمر لسنوات من جانب أصوات يسمعونها دون أن يسمعها مَنْ حولهم.

ربما كان من أهم النتائج التي توصل إليها ڤان ديوسين علمه بأن مرضاه قد يتراءى لهم أنهم يستمعون إلى نوعين متميزين من الأصوات، ويتحدث عن هذين النوعين على أن أحدهما صوت الطبقة العليا والثاني صوت الطبقة الدنيا.

فالأصوات التي تأتي من الطبقة الدنيا تشبه ما يصيح به السكارى في الحانات بقصد الإثارة والإغاظة على سبيل التسلية، وتدعوهم تلك الأصوات إلى القيام بأعمال مشينة ثم توبّخ على مجرد التفكير في ذلك، فهي تبحث دائماً عن نقطة ضعف في الشخص. مثال ذلك: سمع رجل أصواتاً استمرَّت تلومه لمدة ثلاث سنوات على استدانته ثلاثة بنسات - كان قد سدّدها بالفعل. ولكنّ تلك الأصوات ظلت تنادي الشخص بكل ما يمكن أن يتصوّره من أسماء بذيئة، وتستحثه على فعل كل أنواع الفواحش وتسلبه ذاكرته ووعيه، وتهدده بالموت، وتتلاعب بكرامة المريض بكل الوسائل، فمثلاً تفخر بأنه ستوقع به الكوارث في الغد، وتهدده بأن لها سلطة على إحدى الصحف اليومية، وقد تدعوه إلى القيام بأفعال تافهة، كأن تأمره برفع اليد اليمنى وإبقائها مرفوعة هكذا. ثم تهزأ به وتغيظه إذا فعل ذلك، أو تهدّده إذا لم يفعل.

ويبدو بوضوح أن مثل هذه الهلوسات تأتي من «الطبقة الدنيا» وهي تشبه لحد كبير سلوك الأطفال الذين لا يجدون ما يفعلونه.

فالعبارات والأفكار التي تستخدمها كائنات الطبقة الدنيا محدودة، ولكنها تتميز بإصرارها على الهدم، وهي تقتحم كل زاوية أو ركن خفيّ من خصوصيات الفرد، وتستخدم كل نقطة ضعف فيه، وفي اعتقاداته، وتدعى لنفسها قوة خارقة، وتقدم الوعود ثم تتآمر على عقل المريض...

وقد تتكرر بعض تلك الأفكار القليلة بلا نهاية، فهناك صوت استمر أحد المرضى يسمعه على مدى شهور متعاقبة يقول له «هاي» وحاول المريض التعرف على القصد من كلمة «هاي» هل هي «Hey» المعنى حشائش مجففة أو «Hay» للتحية أو لفت النظر. وحينما كنت أتحدث مع مهندس.. عجز تماماً عن القيام بأي عمليات حسابية خلاف العمليات البسيطة. ويبدو أن أصوات الطبقة الدنيا لا تستطيع أن تبرر نفسها رغم ادعائها في أغلب الأحيان أنها تنتمي إلى مدينة بعيدة، ولا تستطيع أن تقدم أكثر مما يسمعه المريض منها ويراه ويتذكره، فيبدو أنها محبوسة في المستوى الأدنى من عقل المريض...

هكذا تعتبر الطبقة الدنيا «مصدر تعذيب» ولكن هناك نحو خُمس حالات الهلوسة تنتمى إلى كائنات «الطبقة العليا». ومن الواضح أن هذه تختص بمساعدة المريض، وغالباً ما تكون الطبقة العليا أكثر رمزية وتمسكاً بالدين، ومعينة وبنّاءة، وهي قادرة على الدخول مباشرة إلى أعماق ومشاعر المريض، فهي بذلك تشبه الأنماط الأصلية Corchytypes كما عند جونج، بينما أصوات كائنات الطبقة الدنيا تشبه الغير «Id» عند فرويد.

ويشير ڤان ديوسين إلى حالة عامل من عمال تركيب المواسير خبر هلوسة آتية من كائنات الطبقة العليا وهي امرأة جميلة تعرض عليه آلاف الرموز. ويذكر ڤان دوسين «أن رؤية ذلك الرجل للمرأة تبينت فيها معرفة واسعة بالدين والأساطير بدرجة تتجاوز كثيراً حدود وتفهُّم «ذلك الرجل». وبعد أن أجرى فان ديوسين الحوار مع هذه الهلوسة الآتية من طبقة عليا استفسر منه عامل الأنابيب عن أحد الموضوعات التي كانت موضع حديث وكأنه يستفسر عن لغز غامض.

ويقرر ڤان ديوسين أنه عَلِمَ من كائنات الطبقة العليا أن غرض كائنات الطبقة الدنيا هو أن تهيىء للشخص نقاط الضعف فيه، بينما غرض الطبقة العليا أو أحد أغراضها كما يبدو هو حماية الناس من الطبقة الدنيا.

ويمكن تصوير التفاوت بخبرات رجل كان يسمع الطبقة الدنيا تجادل بعض الوقت في كيفية قتله، وأتى لنفس الرجل ضوءٌ في خلال الليل مثل الشمس، فعلم أنه من طبقة أخرى من الكائنات لأن الضوء كان يحترم حريته فيتراجع إذا ما شعر الرجل بالخوف. وعلى العكس من ذلك تماماً فإن الطبقة الدنيا تعمل ضد إرادته، وربما تهاجمه إذا ما لمست فيه الخوف.

ونـادراً ما تتكلم تلك الـطبقة العليـا بينما نجـد أن الطبقـة الـدنيـا تستطيع أن تواصل الكلام بلا نهاية.

وبينما تكون كائنات الطبقة الدنيا غير متديّنة أو ضد الدين ويشتدّ غضبها إذا جاء أي ذكر للدين فإن الطبقة العليا كانت تبدو دائماً موهوبة حساسة وحكيمة ومتديّنة.

ولڤان ديوسين ملاحظة بالغـة الأهمية عن الهلوسـة، فعلى الرغم من أنه لاحظ الكثير على مـدى السنين إلا أنـه سرعان ما أدرك بعد أن مر عليه عشرون مريضاً أنه لا يوجد الجديـد الذي يمكن أن نتعلمه، لأن الهلوسات كلها كانت متساويـة. ويبدو أن هذه الملاحظة في حد ذاتها مربكة، فـأولاً قد يتـوقع الإنسان أن توجد تنوعـات مختلفة من الهلوسـة بتنوع البشر، مثال ذلك أننا قد نتوقع أن تكـون هلوسة البيـطريين مخـاطبة للحيوانات وهلوسة المهندسين عذاباً بمخاطبـة الآلات، وقد تكون هلوسة البستانيين محاصرة النباتـات والأشجار لهم وهي تتحـدث إليهم. وربما تـرتبط هلوسة أمنـاء المكتبات بمحادثـة الكتب، وهلوســة أطبـاء الأسنــان بـالتحــدث مــع أطقم الأسنان. ولكن الحقيقة أن مثـل هذه الأشيـاء لا وجود لهـا، فجميع الهلوسات النابعة من كائنات الطبقة الدنيا متشـابهة، وكذلك تلك الناتجة عن الطبقة العليا، وقد يعني ذلك أما أن هناك تشابهاً في أجزاء عقـولنا التي تخلق هـذه الهلوسات، أو أن هناك شيئاً أغرب من ذلك بكثير.

ويميل ڤان ديوسين إلى الاعتقـاد بأن هنـاك شيئاً أغـرب، فمن خلال اهتماماته بـدراسة ظـواهر النعـاس وهي الأحلام والـرؤى التي تمـرّ بنـا أحيـانـاً ونحن عـلى حـافـة النـوم، رجـع إلى كتـابـات الكـاتب الســويـدي المتــديّن الصـوفي إيمانويـل سويـدنبرج «Emmanuel Swecdenborg» الـذي امتـلأت مـذكـراتـه عن الأحـلام بـالمـادة العلميـة الخـام لأيّ محلّل نفسـاني. فإنـه بعد أن قضى فـترة نـاجحـة من حيـاتـه كمهندس وجيولـوجي مرت بـه أزمة عقليـة في سن الخـامسـة والستين من عام ١٧٤٤، تراءت له خـلالها كـوابيس رهيبة: كـأنْ تمسـك بــه عجلة آلـة من الآلات الضخمـة، أو أن يضاجع امرأة فيجد في فـرجها أسنانـاً تقبض عليـه، إلى غير ذلك. وأخيراً رأى في المنام أنه يخـاطب السيد المسيـح، فترك العلم وتحـول إلى دارس متفـرغ للكتـاب المقـدّس، وكـانت نتيجة هذا التحـول أن أصدر مجمـوعة من المؤلفـات تتضمن لاهوتياته، وأصبح واحداً من أكبر المؤثـرين في الفكر الـديني في عصره.

وممـا جعل كتب سـويـدنـبرج غير عـادية أنـه ادعى قيامـه بزيارة السماوات والجحيم بالفعل، وأنه قد دخل مع الملائكـة ومع رجال الدين السابقـين في جدل لاهـوتي طويـل، (وادعى أنه هو الذي حـول مارتـين لوثر بـالفعل إلى لاهـوته الخـاص، ولكنـه لم يستطع أن يقنـع جون كـالفين). وكـان من السهل رفض ذلك كله باعتبـار أنه أوهـام خداعـة كمتدين مخبـول، لكنه استـطاع أن يقدم بعض الأدلـة الواضحـة على أنـه كان على اتصال بالموتى. فلقد طلبت ملكة السويد من سويدنـبرج أن يبعث بتحياتها لشقيقها الراحل ـ ربما فعلت ذلك من قبيل التهكم أو الدعابة، ولما حضر سـويندبـرج حفل الاستقبـال التالي الـذي أقامتـه الملكة أبلغهـا ردّ التحية من شقيقهـا الراحـل، وقال إنه يعتذر لأنه لم يردّ على خطابها الأخـير. حينئذ امتقـع وجـه الملكـة وقـالت بتعجب شـديـد: «لا أحـد يعلم بهـذا الخطاب إلا الله وحده». كذلك طلبت أرملة السفير الهولندي الذي كان قد توفي أخيراً، من سويدنبرج أن يتصـل بزوجهـا الراحل بشأن فاتورة وصلتها من صائغ الذهب، وذكرت أنها تعتقد أن زوجها قد سدّد الفـاتورة. وبعـد أيام قليلة جـاءها سـويدنـبرج وأخبرهـا بأنـه تحدث مـع زوجهـا وأن الإيصـال مـوجـود في درج سرّي بمكتبـه. ولم تكن أرملة السفـير تعلم شيئاً عن هذا الدرج ولكنه كان المكان الفعـلي الذي وجـدت فيه الإيصال.

وقـد وصـف سويـدنبرج أيضـاً، بشيء من الإسهاب، مـا يحـدث حينما تستحـوذ الأرواح على أي إنسـان. ولقـد دهش ڤـان ديوسـين من التشـابـه الكبـير بـين هـذا الـوصـف وبـين الهلوسـات التي وصفها لـه مـرضـاه في مستشفى الـولايـة في مندوسينو. فـردّ سويـدنبرج أن الأرواح والمـلائكة قـادرة على مخـاطبة الإنسـان مباشرة وذلـك بالـدخول بـطريقة خفيـة إلى جهـازه السمعي، وبـالتـالي يكـون تـأثيره عليـه من خـلال السمع. وواصل سويدنبرج وصفه قـائلاً: «إن التحدث مع الأرواح في هذه الأيام نادراً ما ينجح لأنه خـطر...» ويعني هذا بوضـوح أنه قـد أتى على الإنسـان حين من المـاضي كان باستطاعته أن يخاطب الأرواح مباشرة. والتفسير الذي يقدمه لنا سويدنبرج لذلك، هـو أن الأرواح لا تعلم في العادة «أنها مـع الإنسان» لـوجود نـوع من الحاجـز بين كينـونتهـا أو واقـع تـواجدهـا وبين وعي الإنسـان ذاتـه. فـإذا استـطاعت تلك الأرواح أن تخـترق ذلك الحـاجز، أو سمـح لهـا بـذلـك عن طريق إنسان يحاول الخوض في الغوامض، فإنها تصبـح مصدر إزعـاج، «فالأرواح الشريـرة تنظر إلى الإنسـان نـظرة بُغض وكـراهية شـديدة، ولا تـريد إلا أن تـدمّر جسـده وروحـه. ويشـير سويـدنبرج أيضـاً إلى أن الحاجـز الـذي يفصـل بـين الأرواح وبين وعي الإنسان قد يحطمه الناس الـذين «يتمادون في الخيالات لكي يبتعدوا بـأنفسهم عن الملذّات التي يستمتع بها الإنسان الطبيعي». ويعلق ڤان ديوسين على ذلك بقوله: «إنه وصـف جيّد جداً لما نسميه الآن الفصام أو الشيزوفرانيا» (وعلينـا أن نعلم أن الشيـزوفرانيـا أو الفصـام لا يقصـد بهـا

انفصام الشخصية بالمفهوم الحديث الخاطىء وإنما ببساطة الخروج عن الواقع).

ويذكر ڤان ديوسين أن كل ملاحظات سويدنبرج عن تأثير الأرواح الشريرة يتفق مع اكتشافاته، ويشير إلى أن بعض الفقرات التي أوردها سويدنبرج تتضمن وصفاً لخصائص «كائنات الطبقة الدنيا» مثل إصرارها على تحطيم الإنسان، وقدرتها على إثارة الفزع أو إحداث الألم، وميلها إلى الإرهاب والتهديد والغش والكذب ومهارتها الفائقة في التنكر. كل هذه الخواص التي تميز «كائنات الطبقة الدنيا» كما يحس بها المرضى قد جاء وصفها بالذات في كتابات سويدنبرج. ومما زاد دهشة ڤان ديوسين أن تلك الكائنات تكره الدين.

«فلو أن الأصوات التي يسمعها المريض هي مجرد ظهور اللاوعي عنده، فلن يكون لديَّ أي مبرر لأن أتوقع تأييدها أو عداءها للدين، بيد أن كائنات الطبقة الدنيا يمكن أن يُعتمد عليها لتنطق بأقذع التعليقات البذيئة عن أي أوامر دينية». ويذكر سويدنبرج أيضاً أن كائنات الطبقة الدنيا تتسلط باستخدام التفاهات والدناءة، وهذه نقطة أخرى من النقاط التي لاحظها ڤان ديوسين.

ومما لاحظه ڤان ديوسين وكذلك أنه على الرغم من أن كائنات الطبقة الدنيا تدّعي كونها أفراداً، إلا أنها نادراً ما تظهر أي شيء عن هويتها الشخصية، ولقد أوضح سويدنبرج أن الذاكرة الشخصية تُنتزع منهم عند الموت، ولذلك تضطر كائنات الطبقة الدنيا أن تعتمد على ذاكرة وقدرات الشخص الذي تستحوذ عليه. وهناك تشابه واضح للغاية بين أرواح سويدنبرج وكائنات الطبقة الدنيا من حيث محاولة الاستحواذ على عضو من أعضاء المريض أو جزء من جسمه. «فالكثير منها قد اتخذت من آذان المريض مجالاً لها حتى يبدو أن الصمم يزداد عند المريض، ويظل صوت آخر لمدى سنين عديدة يعمل كي يأسر عين المريض فيفقدها حدّة الإبصار» وغالباً ما تحاول الاستحواذ على فرج الإنسان، «وقد وصفت سيدة مريضة العلاقة الجنسية بينها وبين الروح الذكر الذي استحوذ عليها على أنها كانت أكثر إمتاعاً وأكثر عمقاً من الممارسة الجنسية المعتادة».

وهناك تشابه مذهل بين كائنات الطبقة العليا التي يصفها المريض وبين ما يسمّيه سويدنبرج «الملائكة»، إذ تتميز الملائكة بالحنان وحب المساعدة والحكمة. ويرجع السبب في قلة كلامها إلى أن «العقل الداخلي» للإنسان لا يفكر بالكلمات ولكن يفكر في «أمور عامة تتضمن الكثير من الجزئيات» أو باختصار يفكر ببصيرة حدسية نافذة، وهي وظيفة عقلية سليمة، أو هي بمعنى آخر «ملائكة تتحدث من خلال الشطر الأيمن من نصف الكرة الدماغية التي تفضل الرموز. يذكرنا هذا بمريض ڤان ديوسين عامل تركيب الأنابيب الذي كشف عن مئات الرموز العامة عن طريق نصائح كائنات الطبقة العليا من خلاله في مدى ساعة واحدة. ويذكر سويدنبرج أيضاً أن أرواح كائنات الطبقة العليا قادرة على رؤية أرواح الطبقة الدنيا، ولكن العكس غير ممكن - وهذا يتفق مع الخبرات التي اكتسبها ڤان ديوسين.

ولقد كان ڤان ديوسين ميالاً للتعبير عن دهشته بشأن السبب الذي يجعل هلوسات الطبقة العليا أندر بكثير من هلوسات الطبقة الدنيا (نحو خُمس عددها) ويقدم سويدنبرج تفسيراً لذلك بأن الملائكة تستحوذ على العمق الداخلي الأقصى في الإنسان. وأن تدفّقها ضمني، وعلى ذلك فهي ببساطة أقل ظهوراً من الأرواح العدوانية التي تريد أن تكتسب اعترافاً بتواجدها.

وهنا نتساءل: ما فائدة كل هذا الكَلام؟ يصرّ كل من كاربتري وڤان ديوسين على أنهما يحاولان العمل كمراقبين فحسب، ويقصدان بذلك ضمناً أن باستطاعة القارىء أن يختار بنفسه الأرواح أو العقل الباطن تفسيراً للظواهر. بيد أننا لاحظنا ڤان ديوسين يميل إلى التساؤل بدهشة عن السبب الذي يجعل «كائنات الطبقة الدنيا» تظهر عداءها للدين، فكيف إذن نفسر القصة التالية التي أوردها كاربتري في كتابه؟: «دُعيت إحدى معارفه وتدعى بات لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في مزرعة يمتلكها جدّ وجدّة إحدى صديقاتها. وتبين أن الجدّين كانا من هواة الخوض في الغوامض. وفي ذلك المنزل شعرت بات بالقلق من بعض أجزاء المنزل مثل الطابق العلوي المسروق. وفيما بعد اقترح الجدّان على بات أن تحاول القيام بكتابة تلقائية تسجّل بها بعض هواجسها. وفي اللحظة التي أمسكت فيها بات بالقلم استرخت يدها وشعرت كأنها في حالة تشبه الاستغراق في نشوة أو غيبوبة، وأحست بخدر يدها وذراعها، وبدا لها وكأن هناك امرأة من خلفها ذات وجه مثل وجه الدمية تلبس رداء بنفسجياً. وشعرت وكأن قواها قد سلبت بواسطة تلك المرأة. وفجأة سطرت يدها بالقلم «اليزابيت باريت براونج موجودة هنا» (سبق أن ذكر مضيفاها اسم اليزابيت باريت برونج أمامها). وتبعت هذه الكلمات رسالة مطولة تضمّنت معلومات عن أن مسز برونج وروبرت يواجهان صعوبة شديدة في بيئتهما الجديدة التي تواجدا فيها، وببطء بدأت طاقتها تضعف حتى توقفت عن الكتابة، ولكنها أحست خلال بقية اليوم أنها غير متماسكة.

وفي مساء اليوم نفسه عقدت جلسة أخرى قامت فيها كينونات مختلفة باستخدام أصابع بات التي تمسك بالقلم في الكتابة، وكانت الرسائل هذه المرة ذات «طابع خشن». وفي

الجلسة الثالثة أجابت مسز برونج على سؤال طرح عليها: أين تسكنين الآن؟ «نسكن في كل مكان. . . في لا مكان، نحن أنت وأنت نحن» وبعدها أخذت حذرها.

ثم تغير الخط إلى خط توم، شقيق بات الراحل، وكانت الرسالة رسالة حب وارتياح، ولكنها عبرت عن شعورها بالتأثر ففاجأتها صديقتها المضيفة صائحة «لم يكن ذلك توم، إنهم يتظاهرون بأنهم أي شخص» وهكذا أصبحت تعرف الكثير عن كينونات «الطبقة الدنيا» من الأرواح.

لاحظ أحد الجدّين فيما بعد أن بعض الكينونات قد اختفت من المنزل، إذ أن قسمات بات قد اجتذبت إليها تلك الكينونات، وأصبحت بات في حالة اضطراب لاعتقادها بأنها استخدمت كإسفنجة لامتصاص القوى المشكوك فيها.

ولما عادت بات إلى منزلها بدأت تسمع صوتاً في داخل رأسها، وأحست بأنها معزولة بصورة شاذّة عن الواقع، فقد حاولت اليزابيت أن تستدرجها لمزيد من الكتابات التلقائية، ولكنها أدركت لو أنها فعلت ذلك فسوف تقوّي استمساك الروح بها، وقالت اليزابيت في إحدى رسائلها: «نحن نريدك، وإذا رفضت الاستجابة لنا فسوف نسكن حجرتك في داخل جدرانها».

وأخبرتها صديقتها بأنها لو تجاهلت الصوت فربما تضيع، وأدركت هي أن الأمر ليس من السهولة بمكان، وحاولت أن تقرأ في إحدى الروايات التافهة مع تجاهلها للصوت، ولكن إحساسها بأن هناك شخصية أو كياناً كان يضغط على وجهها ويجعلها غير قادرة على التركيز. وكانت تتقلب في فراشها وتتحرك بقوة حتى أنها كانت تفحص فراشها عدة مرات، ولكنها ظلت تشعر بأن معاناتها وتقبلها هذه المعاناة كان هو الشيء الصحيح. فبعد أيام بدأت تستعيد قدرتها على التركيز تدريجياً، وبدأ تأثير الكينونات (كانت تشعر بوجود أكثر من واحدة) يختفي، وأخيراً أصبح لديها انطباع بأنها قادرة بالفعل على رؤية المرأة في ثوبها البنفسجي تتراجع وتتحول إلى كتلة غائمة من اللون البنفسجي ثم تستحيل إلى تموجات خفيفة.

ربما كانت بات سهلة التأثّر بالإيحاء، وربما أوجد عقلها الباطن تلك المرأة ذات الرداء البنفسجي، ولكن لا بد من التسليم بأن هذين التفسيرين غير مقنعين مثل التفسير الآخر بأن بات قد فتحت نفسها لإحدى كينونات «الطبقة الدنيا» وكان عليها أن تخلص نفسها منها بقدر استطاعتها. إن وصف مثل هذه الأنواع من الاستحواذ مألوفة في كتب اللامعقول، ويذكر الباحث الأمريكي ألان فوجان كيف أنه في فترة من الزمن خضع هو نفسه للاستحواذ، ويحكي أنه اشترى لنفسه لعبة معرفة الطالع لتسلية صديق له في دور النقاهة، ولكنه سرعان ما أصبح يتلقى كل أنواع الرسائل التي بدا له أن بعضها يوصل له معلومات جديدة عليه لم تكن موجودة في عقله الباطن: مثال ذلك حينما أعلن المذياع عن موت الكاتبة الصحفية دوروتي كيلجالين بأزمة قلبية، فسأل لوحة الطالع عن صحة الخبر، فأخبرته اللوحة أنها في الحقيقة ماتت بتأثير السمّ. وبعد عشرة أيام ثبتت صحة ذلك (كان هناك تشكك في أن قتلها كان بسبب معرفتها الكثير عن مقتل جون كيندي). نتيجة لهذا الإنذار تبين لفوجان أن روحاً أطلقت على نفسها اسم «تادا» (يعني لا شيء) - ونذكر هنا بإجابات اليزابيت حينما أجابت عن سؤالها على سكنها قد «دخلت إلى أعماق «رأسه» وفي ذلك يقول «أصبحت أسمع الصوت يكرّر نفس العبارات مرات ومرات» بنفس طريقة كائنات الطبقة الدنيا «وحينما سأل اللوحة عن ذلك، أجابته بخبر سيّء: استحواذ».

وتولى أحد الأصدقاء العارفين بمثل هذه الأمور مساعدة فوجان، فقامت روح أخرى بالاستحواذ على يده وجعلته يكتب رسالة: «لكل منا روح وهو حي، وعليك ألّا تتطفّل على أرواح الموتى» وأصبح واضحاً أن الروح أخذت تخرج الطاقة التي بداخل جسم فوجان وتندفع كل من «تادا» والكينونة الأخرى المعيّنة إلى الخارج من قمة رأس فوجان:

شعرت بابتهاج بالغ وصحة جيدة. . بدأ عقلي يدخل في آفاق ممتدّة ليس لها حدود من زمان أو مكان، ولأول مرة بدأت أشعر بالأشياء التي تدور في رؤوس الآخرين، ولشد ما أدهشني أنني بدأت أشعر بالمستقبل من خلال نوع من الإدراك الممتد. . .»(1).

مرة أخرى نستطيع هنا أن ندرك أن تقرير فوجان يبدو على اتصال وثيق بما ذكره سويدنبرج عن الملائكة والأرواح. فإن «تادا» قد كررت العبارات نفسها مرات ومرات كما تفعل كينونات الطبقة الدنيا دائماً، وعرّفت نفسها بأنها زوجة الضابط البحري نانتوكيت. ولاحظ فوجان من مظهرها أنها ترفض الاعتراف بأن زوجها حيّ وأنها ميتة، فيبدو أن الكينونة التي أخرجت نادا من رأس فوجان كانت بمثابة ملاك من ملائكة سويدنبرج.

لكن، ألا يمكن أن تكون كلتا الكينونتين من نتاج الشطر الأيمن من دماغ فوجان كما يزعم جوليان جاينز؟ إنه أمر ممكن تصوّره ولكن مرّة أخرى، لا يبدو أن هناك تمييزاً بين استعراضات الدماغ الأيمن وبين كينونات الطبقة الدنيا، فإن الدماغ الأيمن هو النفس الحدسية، هو العنصر الذي يتواجد فينا ويمدنا بالتأمل والإلهام، تماماً مثل الأنغام التي تمشي في رأس الموسيقار موزارت، ولقد كان لدى نادا أشياء أخرى نفعلها أفضل من تكرار العبارات الغبية مرّات ومرّات.

(1) Alan Vaugan: Patterns of Prophecy, 1973, P.4.

وباستطاعتنا رؤية الفارق واضحاً في تلك الحالة السابقة في مكان آخر[٢] وهي قصة برادابستز المدرّس الأمريكي الذي يعيش في فنلندا واتفق أن تورّط في خدعة إقامة صلة مع «ذاته الأخرى». فبعد أن توفي طفله بالسرطان انغمس أبستر وزوجته في حالة من الانفصام، فكانت زوجته تستلقي، لمدى ساعات على فراشها وتغمض عينيها تصارع الندم والإحباط. أما براد فقد كان يستلقي بجوارها ينتظر خروجها من بياتها الموحش، كي يهدىء من روعها ويشجعها. كان يستلقي وهو في حالة تأهب كامل ينتظر أدنى حركة تدل على أنها عائدة إلى وعيها العادي. ومن الطبيعي في حالة رجل يستلقي على فراشه ساعات عديدة أن ينساق إلى حالة استرخاء. وفي يوم من الأيام بينما هو مستلق في هذه الحالة التي تجمع بين الاسترخاء والتأهّب مرّ به شعور غريب بالتحرر الداخلي وتخلصه من جسمه وأحس كما لو كان طافياً فوق فراشه. ثم لاحظ نبضاً في عضلات ذراعه تريد التحرك، فأعطاها من عقله تصريحاً بالتحرك وطفا في الهواء، وما لبث أن أصبح ذراعاه يتحركان حركات عشوائية وهو ينظر كالمتفرج.

وفي قاعة الطعام حيث تُقدَّم وجبات خفيفة، أظهرت يده ميلاً إلى اختيار الطعام بنفسها، وظل مدة أسابيع متعدّدة يسمح ليده بأن تختار الطعام الذي تفضله، ونادراً ما كانت تختار ما تريده لنفسه. ولاحظ بعدها أنه بدأ يفقد من وزنه ويصبح في حالة صحيّة أفضل من ذي قبل. وفيما بعد استخدمت يده الأقلام والألوان فأبدعت مجموعة رائعة من اللوحات كما قامت يداه بعمل تماثيل معدنيّة، وأخذت تكتب أيضاً القصائد الشعرية التي تميّزت بالوضوح والبلاغة اللغوية.

الذي حدث هو أن ذات الشطر الأيمن من المخّ بدأت تعبّر عن نفسها، ويمكن القول بأن العضو المسؤول عن اللاوعي في برلمان عقله قد استشار شجاعته ليبدأ في إلقاء الخطب. ومما يذكر هنا، أن علماء النفس يشيرون إلى الشطر الأيمن من المخ على أنه الشطر غير السائد في معظمنا، وهو يتصرف مثل الزوجة المغلوب على أمرها والتي لا تجرؤ على إبداء رأيها، والتي علّمتها ساعات الاسترخاء والهمود عند براد أن تتغلب على خجلها.

ذات يوم حينما أمسك براد القلم ليسمح ليده بأن تكتب، كتبت بخط مختلف تماماً عن خطّه الأصلي، وأعلنت امرأة اسمها وقدّمت نفسها تقديماً مختصراً. كان ردُّ الفعل المباشر عند براد رفضٌ قويّ، فدفع الورقة من أمامه بعيداً، وتحدث بقوة قائلاً: «أنا لن أكون ممن ينطقون لأي شخص آخر سوى نفسي» فذهبت هذه المتّصلة ولم تعد ثانية. وهنا يبدو لنا واضحاً أن هناك فرقاً بين صوت الشطر الأيمن من المخّ وأي متّصل خارجي أو روح.

باختصار، سواء قبلنا أم لم نقبل، من الواضح هناك حالة من الانطباع الأوّلي عن وجود كينونات غير مجسدة يمكننا أن نتصل بها في ظل ظروف معيّنة.

ولنُعْفِ سويدنبرج مؤقتاً من الشك في هذه الأمور. ولننظر فيما قاله من أمور أخرى. إنّ آراءه بسيطة للغاية، فالإنسان، طبقاً لما قاله، روح تسكن في جسد تماماً مثل القائد الذي يجلس في السيارة. عندما يموت الإنسان يترك جسده ويغادره، ولكن يظل باقياً متواجداً في شكل غير مجسّد. فعندما يتوقّف القلب تنتقل الروح، وهي الإنسان ذاته، إلى مستوى آخر من الوجود. ويصف سويدنسبرج هذا المستوى الآخر بشيء من التفصيل في كتابه الذي عنوانه «الجنة والنار».

وأول انطباع يؤدّي إليه ذلك الرأي هو أنه رأي واضح السذاجة، فنحن نعلم أن الشخصية شيء وتتغيّر وتتطوّر على مدى الحياة. ويشير هـ. ج. ويلز إلى أن كل خليّة من الخلايا التي تتكوّن منها أجسامنا تتغير كل سبع سنوات، ومن ثم فإن الإنسان حينما يبلغ الأربعين من عمره يكون مختلفاً تماماً عنه في سن الثلاثين أو الخمسين. فضلاً عن ذلك قد تتغير الشخصية من خلال حادثة معينة، مثال ذلك من يتلقّى ضربة قوية على رأسه قد يتحول إلى شخصية أخرى. وقد كتب أحد مشاهير الباحثين في خوارق العادات وهو البروفسور جون تيلور في كتابه عن «شكل العقل المقبل» يقول إننا نعرّف الشخصية بأنها مجموع الإسهامات المختلفة التي تتأتى من مختلف وحدات التحكم في المخ، وعلى ذلك فإن الزعم بأن الشخصية قد تبقى بعد الموت يشبه إلى حد كبير الزعم بأن المنزل سيبقى بصورة ما بعد هدمه، أو قولنا إن روح السفينة ستستمر حية بعد تفكيكها في حوض السفن. الواقع أن شخصيتي تتعرض للذبول حينما أتعب، وتنطفىء مثلما ينطفىء الضوء حينما أنام، وعلى ذلك فإن فكرة التواجد بعد الموت تبدو منافية للمنطق.

نجد هذه الاعتراضات كلها ملخصة بصورة جميلة في مقال برتراند راسل الذي كتبه خلال العصر الثالث من هذا القرن تحت عنوان «هل نبقى بعد الموت؟!»[٣]. فيقول إن الشخص ببساطة عبارة عن مجموعة من الأعراض العقلية والعادات، وإذا اعتقدنا في الحياة بعد الموت فعلينا أن نعتقد

(٢) Access to Inner World, the story of Bradabestez (1938).

(٣) نشر في كتاب «أسرار الحياة والموت» .The Mystries of life and Death

أن الذاكرة والعادات التي تكون الشخص أو الشخصية سوف تبقى بصورة من الصور، وقد أدّى به ذلك إلى أن يذكر بصراحة «أن الأمر عبارة عن جدال غير عقلاني، ولكن العواطف هي التي تسبّب الاعتقاد في حياة أخرى مستقبلية».

ويواصل راسل حديثه قائلاً: «إن أحد المشاعر التي تشجع على الاعتقاد بالبقاء هو الإعجاب بتفوق الإنسان»، ويقتبس من أسقف برمنجهام قوله في هذا الموضوع إن الإنسان يعرف الحق والباطل وأنه قادر على بناء كنيسة وستمنستر وصنع الطائرة وحساب المسافة بين الأرض والشمس، فكيف إذن نستطيع الظن بأنه سيفنى تماماً عند الموت؟

ويقول راسل: إن هذا (في حقيقة الأمر) هراء عاطفي، وهو من نوع الهراء الذي وقف في وجه جاليليو ونيوتن وغيرهما من عظماء العلماء حينما أرادوا أن يتعمّقوا في بحث الكون، وكان قسيساً مثل أسقف برمنجهام قد قال بأن الكواكب لا بد أن تسير في مدار دائري لأن الدائرة هي أضبط المنحنيات، وأن كل الأنواع لا بد وأن تكون ثابتة لأن الإله لا يهمه أن يخلق شيئاً غير محكم.

على كل، يقول راسل، إن الفكرة الرفيعة عن الإنسان لا تتأتى إلا حينما نفكر تفكيراً تجريدياً، والدول المتحضرة تنفق نصف دخلها في قتل بعضها، ولنفكر في كل تلك الأهوال التي ارتكبها الإنسان، فلو أن عالمنا كان له غرض محدد فهل من المؤكد أن يكون ذلك الغرض غرضاً شيطانياً؟

هذا الجدل من واقع الأمر جدل عاطفي وغير منطقي، مثله مثل ذلك الجدل الذي ينسبه راسل للأسقف، فإن لبّ الموضوع هو التأكد من أن الشخص أو الشخصية هي ببساطة مجموعة من الأعراض العقلية والعادات، وخبرتي الشخصية تتعارض مع هذا، فإنني مقتنع تماماً بأن الشخص الذي ينظر بعيني هو شخص الطفل نفسه الذي فتح عينيه على هذا العالم منذ نحو خمسين عاماً. حقاً إنه كان يقود سيارة صغيرة وأنا الآن أقود سيارة صالون ثقيلة، وحقاً أنه نسي ما كان يشعر به وهو طفل، إلا أن الشيء نفسه يحدث الآن، فأنا أشعر بأننا الآن أساساً الأشخاص أنفسهم.

بالإضافة إلى ذلك، لاحظت أن شخصيات أطفالي بدأت تتكشّف وهم صغار جداً في الوقت الذي لم تكن لهم قدرة على شرب اللبن بأنفسهم، ولو أن ما قاله جون تيلور وبرتراند راسل يصح عن أن مصدر الشخصية هو وحدات التحكم الموجودة في العقل، فلا بد وأن كلاً منا قد ولد بوحدات تحكم فردية مميزة.

فوق ذلك، يمكننا متابعة النقاش هكذا حتى نهاية اليوم دون أن يقتنع راسل بأن الكائنات البشرية أكثر من مجرد مجموعة من الأعراض العقلية والعادات، ودون أن يقتنع الأسقف بأننا لسنا أرواحاً مخلدة. بدلاً من ذلك لننظر إلى نوع آخر من الأدلة ربما تعتبر خبرة شخصية. إن صعوبة مثل هذه الحكايات تكمن في أن معظمها غير قابل للفحص، ومن ثم فإن قبولك لها من عدمه يعتمد على سرعة تصديقك لها في البداية، وهذا هو ما يسميه رينيه هاينز Renée Haynes بداية الانغماس. والواقع أن ما يخفّف من الأمر هو المدى الذي نشعر به بأننا نثق في الشخص المعين. لنأخذ على سبيل المثال الحكاية التي رواها الكاتب المسرحي المعروف الفريد سوترو في ذكرياته التي نشرها عام ١٩٣٣ بعنوان «الأرواح البسيطة والأرواح المشهورة» يقول سوترو إنه قد مرت به في حياته كلها تجربة نفسانية واحدة: كان في سيارته التي يقودها سائقه في طريق ريفي حينما سمع نحيب طفل، فطلب من السائق أن يتوقف، وقال له السائق إنه لا يسمع شيئاً مما سمعه، ولكن سوترو تتبّع الصوت خلف بعض الأشجار ونزل على جسر النهر، وهناك وجد طفلة جميلة في الثالثة أو الرابعة من عمرها تبكي وتنتحب وهي مبتلّة. وكان واضحاً أنها سقطت في الماء، فحملها وعاد بها إلى سيارته، ولم يستطع أن يوقف بكاءها ليعرف منها ما حدث، وسألها عن مكان سكنها وأشار لها نحو الأمام فأومأت برأسها، ومضت السيارة ولم تقطع مسافة طويلة حتى وصلت إلى بوابة منزل ضخم. وحينما دخلت السيارة اندفع نحوها رجل وامرأة لمقابلة سوترو، وسألاه: «هل لديك أي معلومات عن الفتاة؟» فأجاب: «إنها في السيارة» وعاد إلى السيارة فلم يجدها بداخلها، وسأل السائق: «أين الفتاة الصغيرة؟» ولكن السائق ظل صامتاً لم يجب، فبادره قائلاً: «الفتاة التي أحضرتها إلى السيارة» فأجاب السائق «إنك لم تحضر أحداً للسيارة».

عاد بالسيارة إلى شطّ النهر فوجد جسد الطفلة ممتداً على بعد أقدام قليلة من الماء.

قصة غير عادية، لا شك أن معظم الناس يرفضونها ويعتبرونها منافية للعقل، غير أن هناك بعض الأحداث التي تؤيّدها، فقد كان سوتروكاتباً مسرحياً مشهوراً في عصره، ومن المفروض أنه لا يقول كذباً لمجرّد الهزل. ولكن هناك حقيقة أخرى هي أن تلك كانت التجربة النفسانية الوحيدة التي ذكر أنها صادقة.

لم يكن الأمر كذلك، ويذكر سوترو أنه روى القصة لعديد ممن يشتغلون بالأمور النفسانية والغوامض كهواية، ففسّروها له تفسيرات متعددة، ولكنه لم يجد من أي منهم التفسير الحقيقي الذي توصل إليه بنفسه. كان واضحاً أنها عملية مقصودة لإظهار سذاجة من يؤمنون بالحياة بعد الموت. . .

لو عرفنا ذلك لأمكننا أن نبدأ بالنظر في أوجه الضعف التي تنطوي عليها القصة: هل يستطيع أيّ راكب سيارة أن يسمع أنين طفل؟ ولو أنه سمعه فهل يبلغ به الاهتمام أن يوقف السيارة للبحث عنه في الوقت الذي تعتبر ظاهرة بكاء الأطفال أمراً غير نادر الحدوث؟ وهل لم يسأله السائق متعجباً عما يفعل وهو يتحدث إلى المقعد المجاور موجّهاً سؤاله عن مكان السكن؟ وهل يمكن أن يخرج من الباب الأمامي من السيارة تاركاً الطفل في داخل السيارة؟

هذا هو نوع الأسئلة التي علينا أن نطرحها عن أي تجربة خارقة للعادة إذا ما أردنا أن نتجنّب التسليم بها، وهو أمر معروف للباحثين الأوائل في جمعية البحوث النفسانية حينما تكونت عام ١٨٨٢، فلقد رأوا أن من الضروري التثبت من الأمور من أكبر عدد ممكن من الناس وجعلهم يحلفون اليمين على صدقهم. وهذه الطريقة لا تكفي للتأكد من زيف القصة. بيد أنه في قليل من الحالات قد تجتمع الدلائل المأخوذة من الأحداث وتأكيدات الشهود على أمور متشابهة. رويت قصة من هذا القبيل في محاضر جمعية البحوث النفسانية في الجزء الثامن عام ١٨٩٢، يمكن أن تخدمنا كمثال يؤكد هذه الحقيقة. وقد رويت تلك القصة على لسان الأب ج. ل. برتراند الراعي البروتستنتي للكنيسة نويللي على نهر السين، وأكدها أشخاص معيّنون: كان برتراند في سويسرا على رأس مجموعة من الشباب في رحلة لتسلّق جبل يسمى تيتليس، وحينما أوشكوا على بلوغ القمة شعر برتراند بإعياء شديد يعجزه عن مواصلة الصعود، فطلب إلى بقية الجماعة الذين يقودهم دليل أن يواصلوا الصعود بدونه وأن يصحبوه عند نزولهم.

جلست وقدماي معلقتان فوق منحدر خطير، وظهري مستند إلى صخرة ضخمة كالمقعد الوثير، اخترت ذلك الجرف لعدم وجود الجليد عليه، ولأنه يواجه منظراً جميلاً من جبال الألب بمنطقة برن. تذكرتُ أن في جيبي لفافتي تبغ، أخذت إحداهما وأشعلتها بعود ثقاب فشعرت بأني أسعد من كل هؤلاء الرجال ثم شعرت فجأة بضربة عاصفة من السكتة المخيّة، ورغم أن عود الثقاب ظلّ مشتعلاً حتى أحرق إصبعي، فإنني لم أتمكن من إلقائه. كان عقلي آنذاك في حالة صفاء تام وسلامة، ولكن جسمي كان خائراً فاقد القوة، عديم الحركة كالصخرة، ولم يكن لدي أي مبرّر للظن بأنني «في حالة إغفاءة الثلوج ولو تحركت لسقطت إلى القاع، وإذا لم أتحرك فسوف أصبح في عداد الأموات خلال عشرين أو ثلاثين دقيقة». بعثت بدعاء إلى الله وعزمت أن أدرس في هدوء عملية الموت. تجمدت قدماي ويداي في أول الأمر، وشيئاً فشيئاً وصل الموت إلى ركبتيّ ومرفقي. لم يكن إحساساً مؤلماً بل كان في العقل شعور بالارتياح التام. ولكن حينما شمل الموت كل جسمي شعرت برأسي شديد البرودة، وبدا لي كأن كماشات تعتصر قلبي لتنتزع حياتي. لم يسبق لي أن شعرت بمثل ذلك الألم المزمن الذي استمر لحظة أو دقيقة وفارقتني الحياة. حينئذ فكرّت: حسن جداً. أخيراً أصبحت في عدد الأموات، وأصبحت مثل كرة في الهواء.. بالونة ما زالت مرتبطة بالأرض بنوع من الخيط المطاطي، وأنا أصعد إلى أعلى وأستمر في الصعود، ما أغرب ما أرى.. أرى أكثر من ذي قبل وأنا ميت... أين جسدي السابق؟ ونظرت إلى أسفل فدهشت حينما تعرفت على غلافي وقلت لنفسي «عجباً» هذا هو الجسد الذي كنت أسكنه وأسمّيه «أنا»، كما لو أن المعطف هو الجسد وكما لو أن الجسد كان هو الروح! ما أبشع ذلك الشيء الذي هو الجسد.. شاحب للغاية، ملون بلون أزرق باهت يحمل سيجارة بين شفتيه وعود ثقاب بين إصبعيه.. حسن. أرجو ألا أدخن أبداً.. إنها خرقة بالية قذرة... آه! لو أن لي يداً ومعي مقص لقطعت الخيط الذي ما زال يربطني إلى تلك الخرقة البالية! حينما يعود رفاقي سوف ينظرون إليّ ويقولون: «مات الأستاذ»، ما أتعس هؤلاء الأصدقاء، إنهم صغار لا يعرفون أنني لم أكن قبل حياً مثلما أنا الآن، والدليل على ذلك هو أنني أرى الدليل يوجّههم إلى اليمين بينما قد وعدني أن يتجه بهم إلى اليسار. كان المفروض أن يكون في آخر الجبل. ولكنه الآن ليس في أوله ولا آخره، إنه وحيد بعيد عن الجبل. والآن يظن الدليل أنني لا أراه، اختفى خلف الشباب، وهو الآن يشرب من زجاجة الماديرا التي كانت معي... حسن، لتستمر أيها المسكين.. إني آمل ألا يشرب جسدي شيئاً بعد الآن. آه! إنه هناك يسرق جزءاً من الدجاجة... هيّا استمرّ يا صديقي القديم التهم الدجاجة كلها إذا أردت فإني آمل ألّا يأكل جسدي البائس مرة أخرى؛ ولم أشعر بدهشة أو غيظ، ذكرت الحقائق دون مواربة وقلت «هالو. إن زوجتي ذاهبة إلى لوسرن، أخبرتني أنها قد تذهب غداً أو بعد غد.. إنهم خمسة أمام فندق لونجرن.. وداعاً يا زوجتي! إنني ميت..» كان كل ما يؤسفني أنني لم أستطع أن أقطع الخيط. سافرت بلا طائل خلال عوالم جميلة حتى لم يصبح لهذه الأرض معنى. إنني أرغب في شيئين فقط: أن أتأكد من عدم عودتي إلى الأرض وأن أكتشف جسدي الجديد الجليل الذي لا يشعر بالإعياء. لن أكون سعيداً لأن الخيط لم ينقطع، حتى بعد أن أستدق وأصبح رفيعاً عما كان، ولم يصبح جسدي المأمول ظاهراً لنظراتي الفاحصة.

فجأة جاءت صدمة أوقفت تصاعدي، وأحسست كأنّ شخصاً ما يسحب البالون إلى أسفل. حزنت حزناً لا يمكن تقديره. كان الدليل قد اكتشف الأمر، وطبق على جسدي العلاج المعروف لمثل هذه الحالة، وهو أن يدلك جسدي بالثلج، كان الأمر غامضاً بالنسبة لي، وأذكر فقط أن كل شيء بدا لي غامضاً، وأحسست بازدراء شديد للدليل الذي كان ينتظر مني جزءاً حسناً حينما أفهمني أنه صنع الأعاجيب. لم أشعر من قبل بمثل هذه المضايقة القوية، وقلت أخيراً لذلك الدليل المسكين «إنك غبيّ، وعاملتني كغبيّ، حينما كان جسدي مريضاً فقط آه.. لماذا لم تقطع الخيط؟.. قال الخيط! أي خيط؟ كنت تقريباً في عداد الأموات؟

ـ ميت! في عداد الأموات! . . لا بل كنت أقل موتاً منك الآن. وليس أدل على ذلك من أنني رأيتك تصعد إلى قمة جبل تيتليس من اليمين بينما وعدتني أن تصعد من اليسار. فأبدى الرجل دهشته قبل أن يردّ عليّ قائلاً: لأن الجليد كان ليّناً، ولم يكن هناك خطر الإنزلاق من عليه.

ـ تقول ذلك لأنك ظننت أنني كنت بعيداً عنكم، لقد ذهبت من الجانب الأيمن كما سمحت لاثنين من الشباب أن يتركا الحبل، فمن منا الغبيّ إذن؟ إنه أنت ولست أنا. والآن ناولني زجاجة الماديرا لأرى إذا كانت ما زالت ملآنة.

كان ذلك مفاجأة جعلته يبعد يديه عن جسدي، وسقط على الأرض وهو يقول لنفسه بصوت واضح: هل ساروا وراءنا؟ . . لا، لا يمكن وإلّا لرأيناه، أم أنه كان يرانا من خلال الجبل؟ هل جسده ميت والذي يكلمني بما فعلته هو شبحه؟

قلت له بصرامة «آه، فلتسقط ولتنظر إلى ما شاء لك أن تنظر، ولتقدم لي مبرراتك الضعيفة، ولكنك لن تستطيع أن تثبت أن دجاجتي لم يكن لها رجلان اثنتان، لأنك سرقت إحداهما!

كان هذا كثيراً على ذلك الرجل الطيب، فوقف على قدميه وأفرغ كل ما تحتويه صرّته وهو يتمتم بالإعتراف، ثم هرب من أمامي.

هذا وتعتبر ملاحظة برتراند بأن زوجته قد غادرت لوسرن مبكرة يوماً كاملاً عما كان مقرراً، مما يؤكد أنه كان صادقاً.

في حالة مثل هذه، لا توجد لدينا تأكيدات من الأشخاص المعنيّين، ولكن لدينا أيضاً ظاهرة مستحيلة تتمثّل في معرفة برتراند بوجهة الدليل في الوقت الذي كان يجلس فيه وظهره نحوه، ولئن كان قد أخطأ في ظنه أنه قد مرّ بتجربة الموت، فلا بد وأنه قد مرّ بتجربة غريبة تتمثل في الإدراك من خلال نوبة حسّيّة فائقة.

وفي هذا التقرير عدة نقاط هامة، إحداها الخيط الذي أراد برتراند أن يقطعه، فهو لم يشرح ما الذي كان يقصده بهذا الخيط الذي كثيراً ما يذكر في التقارير التي نسمّيها تجارب التواجد خارج الجسد (O.B.E) التي كان فيها الأشخاص يطفون خارج أجسادهم بينما يشعرون بأنهم ينظرون إلى أسفل فيرون أجسادهم الطبيعية وهم مرتبطون بها بنوع من الحبل أو الخيط اللامع. ونقطة أخرى جديرة بالذكر هي قدرة برتراند على إدراك أشياء كانت تحدث في مكان آخر، مثل ما كان يفعله الدليل، واستعداد زوجته لزيارة لوسرن وغير ذلك. مرة أخرى نذكر أن مثل هذه الأمور يتكرّر شرحها من جانب كل من يزعمون أنهم مرّوا بتجربة التواجد خارج الجسد. وهناك نقطة ثالثة تستحق الإشارة إليها هي شعور برتراند بالارتياح وهو خارج جسده، وما استتبع ذلك من شعور بالتردد أو عدم الرغبة في العودة إلى الجسد، وهي ظاهرة أخرى مألوفة في روايات تلك التجارب.

كل هذا يميّز قصة برتراند عن تلك القصة التي ابتدعها الفريد سوترو، ذلك أن حكاية سوترو تعتبر من ذلك النوع الذي يتصوره من يعرفون القليل عن البحوث النفسانية وأنها من قبيل حكايات الأشباح، ولكنها في الواقع خلاف ذلك. وإذا ما حكمنا من آلاف الروايات والتقارير الواردة في الكتب السنوية لجمعية البحوث النفسانية، أو مثيلاتها في أوروبا وأمريكا، لوجدنا أن الأشباح لا تجلس على شواطىء الأنهار على بعد ياردات قليلة من الأجسام الغارقة وتصدر أصواتاً مزعجة تعلو لدرجة تجعلها مسموعة في داخل السيارة رغم دوران محركاتها. وهي لا تسمح لأنفسها أن تحمل أو تؤخذ إلى خارج المنازل التي تعيش فيها. فظهورها النمطي كما تصفها التقارير تلو التقارير تبدو فيها كأشخاص حقيقيين. كانت هناك امرأة جالسة تقرأ فدخل عليها في الحجرة رجل عجوز طويل القامة نحيف القوام، وحينما دقّقت النظر فيه تعرّفت عليه كعمّها الكبير، كان يبدو عليه الهياج، وفي يده لفّة ورق. لم يجبها حينما خاطبته، ولكنه خرج من باب كان أحد مصراعيه مفتوحاً. لم تشعر بأيّ تهديد لأنها افترضت أن عمها قد أتى ليراها. ثم تلقت في البريد بعد ذلك خطاباً من والدها، يطلب إليها فيه أن تذهب لترى عمها الذي كان مريضاً في فراش الموت. ولما ذهبت وجدت أنه قد مات في مساء اليوم السابق في الوقت الذي رأته فيه بحجرتها. وعثر على لفّة ورق تحت وسادة الرجل، واستنتجت من ذلك أنه كان يريد أن يغيّر وصيته لصالح أبيها، ولكن الموت فاجأه. هذه الرواية مأخوذة من أحد المجلدات القديمة لجمعية البحوث النفسانية تحت عنوان «خيالات الأحياء» كان قد سطّرها بعض الأعضاء المؤسسين وهم جورني Gurney ومايرز Mayers وبودمور Podmer (الجزء الأول ص ٥٥٩). وهي حكاية تساير أساساً النمط الذي عليه مئات الروايات المشابهة (يبلغ حجم الكتاب أكثر من ألف صفحة). وحكاية الأسقف برتراند أيضاً تساير هذا النوع ومثلها في ذلك مثل مئات التقارير عن الموت القريب أو تجارب ما بعد الموت.

وبالإمكان دائماً أن نعثر على ثغرات في الروايات الفردية، مثال ذلك حالة العم الكبير التي قدمها الميجور تيلور إلى جمعية البحوث النفسانية ذكر فيها أن السيدة «ل» التي سجلت هذه الحالة ترغب في إخفاء اسمها عن أقاربها المضربين» ربما لأن الموضوع كله من اختلاق تلك السيدة أو من إبداع الميجور تيلور، أو ربما كان اختلاقاً من مؤلفي الكتاب لغرض معين. غير أنه وجدت بعد ذلك الكثير من

الحالات في كتاب «خيالات الأحياء» يبدو بوضوح ما بينها من تشابه أساسي ويبدو أنها جميعاً حالات مزعومة.

أخيراً هناك ما هو أكثر إقناعاً من الجدل حول ما قدَّمه سويدنبرج من آراء عن الحياة بعد الموت: فهناك أدلة كثيرة مماثلة تؤيّده في مئات من التقارير المكتوبة عن الحياة بعد الموت تعرض لنا النمط نفسه الذي يتمثل بصفة عامة في أنه بعد مرور الإنسان بتجربة الموت التي قد يصحبها إحساس بالألم أو الاختناق يأتي الشعور بالتحرر. وفي كثير من الحالات يشعر الإنسان بأنه يهوي في خندق عميق يرى في نهايته النور، ثم يجد نفسه ينظر إلى جسده، وعادة ما تصطحب هذه الحالة شعورٌ بأمن عميق وارتياح معين لوقوع هذا الوجود الطبيعي: وقد يجد الشخص أنه من المستحيل قبول فكرة موته، ويحاول أن يتحدث إلى أناس آخرين، فهم يتجاهلونه رغم أن تلك الكائنات تبدو أحياناً مدركة له. وهو يحاول أن يلمسهم ويمر بيده من خلالهم. وفي مرات متكررة من حوادث «تجربة الموت» يقابل الشخص الميت أناساً من أقاربه ماتوا قبله، وهذا يحدث فقط في حالة الحمّى الشديدة، وقد يفشل الشخص في إدراك أنه لم يعد حيّاً، وفي تلك الحالة قد يظل محبوساً في الأرض أو روحاً مرتبطة بالأرض إلى الأبد.

ولعل الاعتراض الواضح أخذ على حالة القس برتراند كدليل على الحياة بعد الموت عدم وجود دليل يثبت أنه قد مر بالفعل بتجربة الموت، ربما مرت به حالة شبيهة بالحلم أو الرؤيا، حتى علمه بالمخالفات التي ارتكبها الدليل لا تعتبر إثباتاً واضحاً على خوضه تجربة الموت، فربما كانت نوعاً من رؤيا الاستشفاف. بيد أن حالات أخرى عديدة قامت فيها الأرواح الوسيطة بإملاء رسائل تزعم أنها قد عادت من الموت. نقدم هنا حالة نموذجية منها من سجلّات أحد الباحثين المحدثين هو الدكتور روبرت كروكال Dr. Robert Crokall تتعلق بوفاة الدكتور كارل توفوتني أحد تلاميذ العالم النفساني الفريد أدلر، فقد رأت صديقته جريت شرودر Grete Schroder في منامها نوفوتني قبل وفاته بيومين ليلة عيد الفصح عام ١٩٦٥، وأعلنت أنها علمت بقرب موت نوفوتني، وحينما تحقّق الحلم تأثرت جريت بشدة لدرجة أنها ذهبت إلى أحد الوسطاء لتستشيره رغم أنها لم تكن تؤمن بهذه الأمور من قبل، وكتب الوسيط رسالة عن موت نوفوتني بالكتابة التلقائية بخط يد معيّن تعرفت جريت شرودر على أنه خطّ نوفوتني نفسه.

وصف نوفوتني كيف أنه أثناء عيد الربيع كان يقضيه في منزله الريفي، وافق على الخروج إلى نزهة مع بعض أصدقائه، فشعر بالمرض، مدة من الزمن، وكان يشك إذا كان سيصطحبهم في تلك الرحلة أم لا:

مع ذلك أجبرت نفسي على الذهاب معهم، ثم شعرت بأنني متحرِّر وفي صحة جيدة، وأخذت أتنفّس بعمق في هواء المساء النقي. وكنت في حالة أسعد مما كنت عليه لمدة طويلة. كيف كان ذلك؟ لقد أدهشني أنني أصبحت لا أواجه أي مشكلات، ولم أكن متعباً أو ضيّق النفس.

تلفّت نحو أصحابي فإذا بي أنظر إلى أسفل فأرى جسدي على الأرض وأصدقائي في حالة من اليأس يستدعون طبيباً ويحاولون الحصول على سيارة تحملني إلى المنزل، ولكنني كنت صحيحاً، لا أشعر بأي ألم، ولم أستطع تفهّم ما يحدث. واتجهت إلى أسفل وتحسست قلب الجسم الملقى على الأرض. حقاً - لقد توقّف النبض - وكنت ميتاً! لكنني ما زلت حياً مع أصدقائي أتكلم، غير أنهم لا يرونني ولا يردّون عليّ. فغضبت منهم وتركتهم.

وظل كلبي ينبح ويئنّ أنيناً حزيناً لا يعرف إلى أي واحد منا يذهب، إذ كان يراني في مكانين في وقت واحد واقفاً ومستلقياً على الأرض.

وحينما انتهت كل الرسميات ووضعت جثتي في التابوت تحققت من أن المنية قد وافتني، ولكنني لم أستطع الاعتراف بالحقيقة لأنني مثل أستاذي الفريد أدلر لم أكن أؤمن بالحياة الأخرى أو بما بعد الحياة، فذهبت إلى أعلى التل حيث تسكن جريت، وكانت جالسة بمفردها، وقد بدا أنها غير سعيدة، ويبدو أنها لم تسمعني هي الأخرى.

ولم يعد هناك بد من الاعتراف بالحقيقة. فحينما فعلت ذلك رأيت أمي تأتي لتحيتي، بذراعيها مفتوحتين لي تخبرني بأنني انتقلت إلى العالم الآخر - لم يكن ذلك بالكلمات طبعاً، لأن الكلمات شيء ينتمي إلى الأرض فقط، ومع ذلك لم أدرك عباراتها، وظننت أنني في حلم. وظل هذا الاعتقاد عندي مدة طويلة، قاومت الحقيقة وأصبحت بالغ التعاسة(٤).

من السهل أن نؤيد برتراند راسل في عدم ثقته في مثل هذه البراهين فيبدو أنها مثل التفكير المأمول. وهي أيضاً تتعارض مع افتراضاتنا المبنية على التعقل، فمثلاً يصف نفسه وهو يتنفس بعمق في هواء المساء النقي، فهل يتنفس الميت مثل الحي ليحول الأوكسيجين إلى ثاني أوكسيد الكربون؟.. والمفروض أنه وجد نفسه في ملابسه الكاملة وهو يقف بجانب جسده.. ولو أنه وجد نفسه فجأة عارياً تماماً فربما كان قد لاحظ بسرعة أن شيئاً غريباً يحدث، فهل يعني ذلك أن ملابسنا سوف تبقى علينا بعد الموت أيضاً؟ يبدو أن الرواية بكل أسف غير مقبولة من ناحية الحقائق، فلو أنه وصف دوّامة الأضواء الملونة أو الشعور بامتداد التموّجات التي تنزاح على سطح البحيرة فربما كان الأمر أكثر قبولاً.

(٤) Robert Crookall, What Happens When you Die, P. 63.

ولعل هذا الوضع العادي الكامل الذي هو محاولته لتحسّس نبض قلبه وغضبه من أصدقائه يبدو كما لو كان من ابتكار شخص ضعيف الخيال.

أمام هذه الاعتراضات، علينا أن نضع تحت أعيننا الحقيقة البسيطة بأن هناك الكثير جداً من التقارير الخاصة بتجربة الموت، وهي تسير تقريباً على النمط نفسه، فأي عالم قد يسلم بأن ذلك يجعل البراهين أكثر إقناعاً، فإذا عاد بحّار يحكي أنه تعرض لحادثة غرق سفينته ووصل إلى جزيرة بها سكان لهم شعر أخضر وذيول طويلة فربما كان من الأسلم افتراض أنه إما كاذب أو أنه كان يعاني من هذيان ارتعاشيّ، أما إذا قرر مئات البحارة مرورهم بالتجربة نفسها خلال سنوات عديدة فقد يكون من الغباء ألاّ نولي ما يروون عناية خاصة وتقديراً دقيقاً، فقد يكون من ورائها شيء حتى لو كان تآمراً من جانب البحارة، بالطريقة نفسها حينما يأتي تقرير وراء تقرير من أناس تعرضوا لخطر مفاجيء ويذكرون في رواياتهم عبارة واحدة: «وتراءت كل حياتي أمام عيني»، فربما يبدو ذلك وكأنّ العقل قد تعرّض بصورة غريبة «لذكريات سريعة التداعي» بشكل آلي نشطتها لحظات التعرض للموت. قد يفكر الذين يعتقدون في الحياة الأخرى أن الغرض من هذه الميكانيكية هو تذكير الشخص بهويته حتى لا يدخل إلى العالم الآخر وهو في حالة التباس، أما المتشككون فينظرون إلى ذلك على أنه ظاهرة طبيعية، ربما تكون نتيجة لزيادة في إفراز الإدرينالين، أو لبعض التفريغ الكهربي الذي يصحب الحالة الطارئة. بيد أنه نظراً لكثرة عدد الحكايات التي رددت هذا الإحساس فإن هناك اتجاهاً أكثر ضعفاً يرفضها باعتبارها نوعاً من حكايات العجائز.

فهل يعني ذلك أن برتراند راسل قد عمد إلى إغفال الحقائق حينما وصف ما بسبب الاعتقاد في حياة مستقبليّة بأنها ليست مزاعم عقلانية بل عاطفية؟ ليس ضرورياً أن يكون برتراند راسل قد فعل ذلك، بل علينا أن نعترف بأن العالم مليء بملايين الحقائق، وأن لكل شخص أن يختار ما يهمه، حتى كبار المفكرين لا يستطيعون أبداً أن يأملوا في معرفة تتجاوز جزءاً ضئيلاً من كل الحقائق المتعلقة بالعالم الذي يعيشون فيه. ولقد كرس راسل حياته لمحاولة إقامة الحقائق الأساسية عن المنطق والرياضيات، ولا يحق لأحد أن يلومه في أنه لم يكن محباً للاستطلاع عن وجود حياة أخرى أو «حياة بعد الحياة» وفي ضوء عدم وجود الدافع إلى الاستطلاع يصعب علينا أن نلومه على الخلاصة التي عبر عنها بعبارته «حينما تموت فإنك ميّت بالفعل».

هذا، ويستحق راسل أن ننظر إليه نظرة ناقدة حول الطبيعة الضحلة التي ميّزت مزاعمه عن السبب في اعتقاد الناس بوجود حياة أخرى، فهو يسلّم بعدم وجود براهين عملية على وجود حياة بعد الموت، وبذلك فلا بد أن يكون تفكيراً في رغبة مأمولة. أما عن الاعتراض على أنه فشل في تقدير الحقائق فقد يجيبنا على هذا بأنه ليس لديه وقت. ولكن لو تقدم إليه شخص بالحقائق القوية الثابتة ليبرهن على وجود حياة بعد الموت، فقد يكون مستعداً للاقتناع بها.

والحقيقة البسيطة هي أن هذه ليست الطريقة التي نقيم بها الحجج، فلا يمكنني أن أقرر أن الشخص صادق لأن لديّ برهاناً دامغاً قوياً، ولكنني أقرر على أساس عدد كبير من التجارب التي مرّ بها هذا الشخص وتتجمع في النهاية كتجمع الجزئيات لتعطيني صورة شاملة عن شخصيته. ويمكن مقارنة ذلك بالصورة التي تظهر في الصحف، فحينما ننظر إليها من خلال عدسة مكبّرة نجدها تتحول إلى مجموعات من النقط السوداء والرمادية، ولا يستطيع من ينظر إلى هذه النقاط، كل على حدة، أن يكون صورة حقيقية لوجه معروف. والشيء الغريب هنا هو أننا حينما ننظر إلى الصورة عن بعد معيّن تتلاشى النقط، وحينئذ نتعرف على الوجه بل ونرى التعبيرات في العينين. فلو أننا نظرنا إلى الصورة نفسها من خلال عدسة مكبرة فمن المستحيل أن نرى كيف أن النقط تخلق ذلك التعبير.

ينطبق ذلك كله على المشاكل المتعلقة بخوارق العادات، ولقد مرت بي تجربة من هذا القبيل منذ بضع سنوات حينما كنت أكتب كتاباً عن «الشبح المزعج» الذي جاء ذكره في سجلات العصور[٥]. إذ جاءني الناشر السابق لكتبي وسألني عما أكتب في ذلك الوقت، وكنت عائداً من فوري من بونترفراكت حيث كنت أحقق في حالة شبح يظهر في صورة راهب أسود. وبدأت أحكي له عن الموضوع فقال لي: «بالتأكيد أنك لا تؤمن حقاً بمثل هذه الأمور»، وأخذ يثير كل أنواع الاعتراضات المعتادة لكون الروايات غير دقيقة أو أنها من قبيل عبث الأطفال واضطرابات زلزالية، وشهود كذابين... ففندت له كل اعتراض بأن وصفت حالة أخرى لا ينطبق عليها الاعتراض. ففكر من فوره في اعتراضات أخرى جديدة، وبعد نصف ساعة أو يزيد من المناقشة أدركت أنه لن يغير رأيه مهما قلت. فعلى حدّ إدراكه تعتبر الأشباح والعفاريت بقايا سيئة من خرافات العصور الوسطى، وهذا كلّ ما يتعلق بها. وكانت كل حالة من الحالات التي شرحتها له بمثابة نقطة من نقاط صورة الصحيفة، فهو ينظر إلى تلك النقط من خلال عدسته

(٥) الشبح المزعج: دراسة في الوهم المدمّر Poltergeist; Study in destructive Hannting.

المكبرة، فلا يرى أي شيء. . ولقد قضيت عدة أشهر في دراسة مئات الحالات المرويّة منذ عهد روما القديمة إلى لندن الحديثة ومن فرنسا العصور الوسطى إلى البرازيل في عصرنا هذا، فتوصلت إلى التعرف على كل الخواص الرئيسية المميّزة للعفاريت، وتبينت أن من الواضح أنها لم تتغير. أو باختصار يتكون منها نمط أو نموذج واحد، ولئن لم يعكف صديقي ذاك لأسابيع قليلة على دراسة مثل هذه الحالات فسيظلّ معتقداً أن كل حالة منها نوع من الوهم أو الخداع، ولو أنني قلت له ذلك من أول الأمر فلربما شعر بأنني أفرض عليه رأياً خاصاً.

اقتنع صاحبي تماماً بأن قدراته على التعليل لا تقلّ جودة عن قدراتي، ولكن الذي لم يستطع رؤيته هو أن التعليل، كي يكون فعالاً، لا بد وأن يتناول مدى واسعاً من الحقائق، فيدوّن حقائق يعتمد عليها العمل، فإن أقوى العقول المستنبطة في العالم سوف تدور في فراغ.

هذا ولا يعتبر هذا الكتاب محاولة لإقناع أحد بأن الحياة بعد الموت حقيقة قائمة بل إنه ببساطة محاولة لتقديم الحقائق بصورة منظمة، وسيكون القارىء في النهاية في وضع يسمح له بأن يقرر بنفسه(*).

(★) الفصل الأول من كتاب «ما بعد الحياة»، تأليف كولن ولسن، ويصدر قريباً عن «دار الآداب».

صدر حديثاً

الساعة العاشرة والنصف ذات مساء صيفي

تأليف: مارغريت دوراس
ترجمة: رنا إدريس

لقد أصبحت ماريا فريسة السعادة. إنّهما يتجاسران. ففيما كان رجال الشرطة يمرّون، كانا لا يزالان يتبادلان النظر. وانفجر الانتظار أخيراً، طليقاً. من أركان السماء جميعها، من الشوارع جميعها، ومن هؤلاء النيام. من السماء فحسب، كانت ستحرر، هي ماريا، إنه كان رودريغو بايسترا. إنها الآن الساعة الواحدة وخمسون دقيقة صباحاً. قبل ساعة ونصف من موته، وافق رودريغو بايسترا على رؤيتها.

ترفع ماريا يدها محيّية. إنها تنتظر. ويد، بطيئة وبطيئة، تخرج من الكفن، وترتفع وهي تشير بدورها عن تواصل مشترك، ثم تسقط اليدان.